صورة المغرب عند نهاية 2010

"لماذا يكرهوننا"؟

محمد العمري

www.medelomari.net

"لماذا يكرهوننا"؟ هذه العبارة محفظة للرئيس الأمريكي بوش الابن، وقد بناها على "مغالطة التعميم"، حيث أوهم أن الكراهية تتجه لأميريكا وللديموقراطية الأمريكية، والحال أن الكراهية كانت خاصة به وبمن يحيط به من المحافظين الجدد. ويكاد المسؤولون المغاربة ـ قبل المواطنين ـ يختمون سنة 2010 بسؤال قريب من سؤال بوش، ويقومون بنفس المغالطة: لماذا لا يفهموننا، أو لا يتعاطفون معنا؟

تعمق الإحساس بهذا الغبن حين ثارت ثائرة الأصدقاء قبل الأعداء بمناسبة امتناع مواطنة مغربية، اسمُها أمينتو حيضر، عن القيام بإجراءاتِ عبور الجمارك، ثم تخلت عن جواز سفرها طواعية، فلم يجد المغرب من حل غير ردها على أعقابها. أمينة حيضر أكلت ملايين الإنصاف والمصالحة بالدرهم والسنتيم ثم عادت لفتح باب جديد للمساومة، فتركت المسؤولين المغاربة يتخبطون بين العودة لفتوى إدريس البصري (في شأن السرفاتي) وإكراهات

الوضع الدولي الجديد الذي لم يعد يقبل الكثير من "البسالة المخزنية". فهذا الحدث المسطري الذي كان يبدو بسيطا جعل الاتحاد الأوروبي يهدد بمراجعة علاقاته المتقدمة بالمغرب. وقتَها سمعتُ وزيرا فرنسيا يقول لأحد الصحفيين المغاربة (في سياق التنويه بموقف فرنسا): "عَلى المغاربة أن يتساءل لماذا ليس لهم غير صديق واحد داخل المجموعة الأوروبية؟"

وعاد نفس الشعور بالغبن عندما لجأت قوات الأمن إلى تفكيك مخيم غير قانوني صار يهدد الأمن، وذلك بتحوُّله إلى وكر للمرتزقة ومجرمي القاعدة، فضلا عن عدم توفره على شروط الحياة في حدها الأدنى. فبرغم أن الدولة فضلت أن "تعطي ظهرها للتغراز"، على غير عادتها، وكظمت غيظها، أكثر مما يمكن أن تفعله أي دولة موغلة في الديموقراطية، حين لم ترد بعنف مشروع على ذبح رجال الأمن، فإن الجرة لم تسلم هذه المرة، وتمكن حزب يميني عنصري (من دولة جارة، يا حسرة!) من قلب أغلبية البرلمان الأوروبي لتصوت ضد المغرب! حتى "الصديق الفرنسي التقليدي" وجد نفسه في حرج، وانهالت عليه مطارق حكام الجزائر، التي قد ينهار يوما أمام ضرباتها اللطيفة والعنيفة. وتُوجت هذه المواقف العدائية بطرد الشباب المغربي من ملتقى الشباب بجنوب إفريقيا.

لماذا يكرهوننا؟

من السهل البرهنة على عنصرية الحزب الشعبي الإسباني والإسبانيين عامة، ومن السهل إقامة الحجة على تأثير دينار البترول الجزائر المهدر خارج الوطن لشراء الأبواق الصحفية والعملاء السياسيين، من السهل التدليل على الرغبة الأمريكية والغربية والصهيونية في استمرار الصراع في هذه المنطقة من العالم العربي لتسهيل نهبها. ولكن الذي لا نريد أن نراه، ولا نرغب حتى في الحديث عنه هو أن المجتمع المدني والحقوقي والبرلماني يفرض إرادته على السياسيين في العالم الغربي، خاصة بعد تأديبه لكل الأذناب الذين ساروا في ركاب بوش في حروبه الهوجاء. والمجتمع المدني والحقوقي يقرأ سيرتنا الذاتية ويُعيدُ تقليبها. فيجد أننا أصحاب سوابق، ولذلك فكل خطأ جديد نرتكبه يعامل بارتياب وحذر باعتباره "انتكاسة مريض"، قد تكون أخطر من المرض نفسه، أو "عودة مدان" إلى ديدانه، وهي عودة تقتضي مضاعفة العقاب، وتنفيذ الموقوف

منه. كل خطأ منا يؤدي مباشرة إلى فتح الملف القديم فيشدد العقاب. ونحن لا نكف عن ارتكاب الأخطاء المجانية فتمحو سيئاتنا حسناتنا، كما سيأتي.

الصورة التي ترسخت عن المغرب في أذهان الفاعلين الحقوقيين والديموقراطيين عامة تبدأ باغتيال المهدي بن بركة. نحن ورثة تلك الجريمة لأننا نرفض الابتعاد عنها. العالم يرى اليوم أننا مازلنا نتستر على قتلة المهدي بن بركة...، ونرفض التوقيع على مواثيق دولية تمنع الإفلات من العقاب، وتساوي بين الناس أمام المحكمة الجنائية الدولية. كيف سيثقون فينا؟ ومادام المسؤولون مصرين على ترك هذه الشوكة في ظهر المغرب فسيظل يسير منحنيَ الهامة تتخطاه الأرجل، وترفسه الأقدام.

الصورة التي ترسخت عن المغرب في نوادي الحقوقيين، وجمعيات المجتمع المدني، هي الصورة التي رواها العائدون من جحيم تزمامرت وقلعة مكونة وأكدز فضلا عن دار المقري ودرب مولاي الشريف، هي الصورة المريعة التي رواها أطفال أفقير وزوجته أو رويت نيابة عنهم، وصيغت من ألسنتهم. انتقلت هذه الصورة من الشائعات إلى التصريحات الصوتية إلى المخطوطات السيرذاتية إلى الأفلام السنمائية متنقلة بين لغات العالم، وما زالت تتناسل بالترجمة والإخراج.

الصورة التي ترسخت عن المغرب هي الصورة التي تحدث عنها المغتربون واللاجئون السياسيون الذين حرمهم أمثال أفقير والدليمي وإدريس البصري وكديرة، ومن معهم من التمتع بثمار الاستقلال الذي ضحوا من أجله. لقد روى هؤلاء، وعلى رأسهم الفقيه البصري، رحمه الله، وعبد الرحمن اليوسفي، أمد الله في عمره، للعالم الفساد المستشري في جنبات النظام المخزني ما ظهر منه وما بطن. كانت إذاعة مغرب الشعوب لا تترك عيبا مستورا إلا كشفته.

صورة المغرب هي صورة البروتوكول الرث العتيق الذي يُذكِّر العالم بعهود تخلصت منها البشرية. عصور العبودية والرق... ثم هناك المتخيلُ الكامن وراء البروتوكول... الخ

لقد عشنا لحظة من الأمل في القطع مع تلك الصورة وبدأنا نرويها للعالم في نشوة على أنها صورة من الماضي، غير أن الخوف من متطلبات الحداثة والديموقراطية سرعان ما تغلب على الرغبة في الالتحاق بعالم حقوق الإنسان،

فبدأنا نلقي بالحجة تلو الحجة في وجه العالم على أننا لم نستطع أن نقطع مع ذلك الماضي. نحن نريد أن نلعب كرة قدم حديثة بالسلهام والقفطان والبلغة، وهذا مستحيل. توقفت مسيرة توصيات الإنصاف والمصالحة بعد التأشير عليها، وعدنا إلى أساليب الأمس ورجال الأمس. عدنا لإنشاء الأحزاب الإدارية.

هناك خوفان متأصلان يسكنان مفاصل المخزن:

1) الخوف من اتصال "الآخرين" غير المخصيين بالجماهير، ولذلك كان لا بد من تقزيم الاشتراكيين وإبعادهم عن قيادة السفينة، بعد الخروج من منطقة العواصف، وتقزيم الإسلاميين رغبا ورهبا، لمنعهم من ركوبها أصلا. أما ما سوى ذلك (من أحزاب إدارية) فمجرد قطع غيار تستعمل حسب الحاجة ثم يرمى بها في أقرب مقلب.

2) والخوف من الاتصال بالخارج باسم الدولة، ولو تعلق الأمر بالوحدة الوطنية. وهذا ما يجهله أو يتجاهله البرلمانيون هذه الأيام وهم يشتكون من عدم وضع الملفات والإمكانيات والسفارات رهن إشارتهم لخدمة قضية الوحدة الوطنية. سمعت بن كيران يرد على صحفي يعاتب الأحزاب على عدم القيام بالدبلوماسية الموازية قائلا: "شكون اللي خلاك.." !

ولم يقف الأمر عند توقيف مسلسل الإصلاح السياسي بل عاد الحديث عن الاختطاف والتعذيب والأخذ بالشبهة وتحريك الملفات غير المُقنعة، مثل ملف السياسيين الستة المحاكمين على هامش قضية بلعرج. لا أحد من المحامين وجمهور المتتبعين اقتنع بالحيثيات المعتمدة في هذا الجزء من الملف. بل أصبحنا نسمع، ويسمع معنا العالم، ما تلوكه الفضائيات البترولية من أن المغرب كان يوفر أماكن التعذيب للمخابرات الأمريكية.

كان لا بد أن تفضي هذه الانتكاسة وما رافقها من أخطاء وتجاوزات إلى استعمال كل الأساليب لتكميم الصحافة المستقلة وتجفيف منابع تمويلها بعد أن كانت علامة على المغرب الجديد المنفتح. حكم على الصحفيين بأحكام استنكرها العالم كله كسلب الحرية والمنع من الكتابة (على المرابط)، والغرامات القاتلة البعيدة عن المنطق.

يبدو لي أحيان أن المسؤولين المغاربة يحسون بالفراغ وقلة الشغل الأمني. لا افهم الضجة الكبرى التي أثيرت حول التبشير والمبشرين لتصل إلى الكنكريس الأمريكي، والحال أن المسألة قابلة للمحاصرة وتجفيف المنابع محليا بشتى الوسائل الدينية والفكرية والاقتصادية. ولا أدري ما الجدوى من القيام بحملة مداهمة المكتبات لجمع الكتب التي يَفترض أشخاصٌ لا خبرةَ لهم أنها تُروج الفكر الشيعي، في حين أن الشيعة لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من تراثهم المذهبي إلا وضعوها على الشبكة العنكبوتية، وهو متاح للقراء والتحميل مجانا.

حين لا نجد ما نصنع نستدعي سفيرنا عند دولة صديقة مخلصة، مثل السنيغال، للتشاور من أجل تصريح لا علاقة للحكومة السنغالية به. وحين لا نجد ما نصنع نجيش رجال الأمن فنحاصر صحيفة أو نطارد صحفيا أعزل قليل الحيلة، أو نداهم منزلا في ظلام الليل لنتأكد من أن علي عمار مازال مؤتزرا. أو ندخل وننفخ الدخان في خياشيم صحافية نعلم حساسيتها للدخان. والنتيجة من هذه السلوكات اللعبية أن المغرب احتل ظلما موقعا متقدما بين الدول التي تضطهد الأديان، وموقعا متقدما في اضطهاد الصحافة والصحافيين. المهم "اللي حرث الجمل دكو".

كل غلط من هذه الأغلاط المجانية يُحسب على المغرب ويُعيد الصورة السوداء إلى الواجهة، ويقلل من احترام العالم لنا ولما ندعيه ونقوله. فهل أنتم منتهون؟ اتقوا الله في هذا الوطن.